

الحاضرة الثانية : تطور التعليمية (الديداكتيك - علم التدريس..)

إن مفهوم علم التدريس لا يزال الجدل فيه كبير في مقاصده، وموضوعه، ومضمونه بالضبط ولا يمكن أن يكون مفهوما واضحا بصورة جلية إلا بتتبع جذوره الأصلية، ومراحل تطوره في الأزمنة والأمكنة لتقريب تصوره إلى الأذهان من خلال أفكار فلاسفة، وعلماء النفس والتربية.

وسنحاول استعراض لمحة تاريخية لتطور مفهوم مصطلح "التعليمية" المصاغ من مصدر "التعليم" في اللغة العربية بصورة مصدره الصناعي "تعليمية" بزيادة ياء مشددة بعدها تاء، وهي ترجمة مناسبة لكلمة الديداكتيك: "**didactique**" الأجنبية.

وقد ذكر لورسي عبد القادر (2002) عن فولكي (1971): أن كلمة ديذاكتيك الفرنسية قد اشتقت من الأصل اليوناني "**Didaktikos**" والكلمة تعني: فلنتعلم، أي نعلم بعضنا البعض، أو أتعلم منك، وأعلمك، وكلمة "**Didasko**" أتعلم، وكلمة "**Didaskon**" تعني تعليم.

مما يفهم من هذا المصطلح الأصلي أو عملية التعليم، أو التدريس ليست هي إلقاء وشرح من طرف المدرس فقط، وإنما تعني عملية أخذ وعطاء بين المدرس والمتدريس بالمفهوم النفسي التربوي المتطور لعملية التدريس.

لقد دخلت هذه الكلمة إلى الفرنسية سنة (1554 م)، كما استخدمت كلمة ديذاكتيك "**didactique**" في علم التربية أول مرة سنة (1613 م) كما يذكر لورسي عبد القادر (2002) من قبل كشف كل من هيلفج "**k.Helwig**" ويواخيم جانج "**J.Jang**" من خلال تحليلهما لأعمال المري فولف كانج رايتش "**Wulf Gang Ratiche**" (1571-1635) في بحثهم في نشاطات رايتش التعليمية، والذي ظهر تحت عنوان: "تقرير مختصر في الديداكتيك، أي فن التعليم (التدريس) عند رايتش.

من نص التقرير يتضح أن مصطلح التعليمية مرادف لمعنى فن التعليم، وكانت تعني عندهم نوعا من المعارف التطبيقية والخبرات، هو بنفس المعنى الذي استخدم يان أموس كومينوس (1657م) "**J.A** "**Comminius**" هذا المصطلح في كتابه الديداكتيكا الكبرى "**Didactica Magna**"، حيث يقول عنه: "أنه يعرفنا بالفن العام لتعليم الجميع كل شيء، أي أنه فن لتعليم الجميع مختلف المواد التعليمية".

واستمر مصطلح التعليمية مستعملا، ويقصد منه، فن التعليم، أو التعليمية إلى القرن التاسع عشر (19)، حيث ظهر العالم والفيلسوف الألماني **جون فريديريك هربارت (1776 - 1841)** المعروف بطريقة تدريسه العامة، والذي وضع الأسس العلمية العامة للتعليمية كخطة للتدريس، وكنظرية للتعليم تستهدف تربية الفرد، فهي نظرية تخص نشاطات متعلقة بالتعليم، أي كل ما يقوم به المدرس من نشاط. فاهتم بذلك أتباعه بالأساليب الضرورية لتزويد المتعلمين بالمعارف، واعتبروا الوظيفة الأساسية للتعليم تحليلا لنشاطات المعلم في المدرسة، وأن الهدف النهائي من التربية هو تنمية الشخصية وليس جمع المعلومات. (حريري، 2010، الصفحات 46-47-48)

وظهر تيار التربية الجديدة بزعامه **جون ديوي** مع بداية القرن العشرين حيث أكد **ديوي** على فعالية المتعلم واعتبر الديداكتيك نظرية للتعليم لا للتعليم. وهكذا يكون قد أستخدم للدلالة على كل ما يتعلق بالتعليم ويتمثل في الأنشطة التي تجري داخل الأقسام وترمي إلى تبليغ المعارف والمهارات المختلفة. وقد ترتب عن هذا الاستعمال تيارين يوظف الأول هذا اللفظ باعتباره صفة تضاف لكل النشاط التعليمي الذي يجري داخل الأقسام، أما الثاني فينظر إلى الديداكتيك بوصفه علم مستقل من علوم التربية. ولكن البحث الديداكتيكي المعاصر لا يمكن التأريخ له بأبعد من ثلاثين سنة من القرن المنصرم فيما يذهب إليه **فيليب سارمجان**. (طاب، 2015، صفحة 161)

وتعد مرحلة الثمانينيات الإنطلاقة الفعلية للبحوث في مجال الديداكتيك، وتعتبر أعمال **غاستون باشلار** في الإبستمولوجيا و**جان بياجيه** في البنائية وعلم النفس المعرفي مرجعية لتلك البحوث خاصة فيما يتعلق بتمثيلات التلاميذ وتفاعلهم مع محيطهم الطبيعي والاجتماعي. ومن الظواهر التي دفعت لانطلاق البحوث الديداكتيكية في العشرينات الأخيرة من القرن المنصرم ظاهرة الفشل المدرسي والتراجع والمستوى الثقافي للتلاميذ، الذي أصبح ظاهرة عالمية ويعتبره البعض ومنهم **Michel Develay** السبب المباشر. (طاب، 2015، صفحة 162)

الديداكتيك في تاريخ التعليم الجزائري

إن مصطلح تعليمية المواد ظهر من خلال بعض النصوص وليس بالمسح، ولم يظهر هكذا نصا بعد الاستقلال بل ظهر إلى ما يشير إلى معناه وهو "منهجية التعليم" حيث ذكر **حبيب نيلوين 1994** نقلا عن **قريكو 1989** قولها: "إن أول نص رسمي ينظم المدرسة الجزائرية بعد الاستقلال يعود إلى سنة 1965، والشيء الذي يميز هذا النص (لم يذكر هذا النص بالضبط) هو أنه قطع كل صلة بالبيداغوجيات التقليدية سواء ما تعلق منها باللغة العربية أو الفرنسية، منذ ذلك الحين خرجنا بفضل هذا النص الحاسم من عمر الطريق التقليدية لندخل كلية في عهد منهجيات التعليم (أي طرائق التدريس). وهكذا أدخلت وعممت "منهجية تعليم اللغة العربية واللغة الفرنسية على السواء".

وقد ذكر في هذا الصدد عبد الرحمن بن بركة 1994 "أن مصطلح ديداكتيك (Didactique) الذي ترجم في الجزائر إلى (تعليمية المادة) واكتفى الإخوة في المغرب بالاحتفاظ بالنطق الأجنبي للكلمة (ديداكتيك)، ويطلق عليه الإخوة في المشرق العربي (طرق تدرس المادة). وأطلق عليه البعض (علم التعليم)، ومازال مصطلح (Didactics) في حاجة إلى بحث وتحديد... الخ".

.. وقد ذكر علي بن محمد 1991 -وزير التربية في ذلك العهد- عن فعالية التدريس في المدرسة (الديداكتيك)، فقال: "... فلن يكون هذا الجهاز "المدرسة الجزائرية" الإنتاجي ملبياً لمطالب الأمة التي تنتظر منه الكثير ينبغي أن يكون فعالاً، وعندما نقول فعالاً فالفقيد هو أن يكون له مردود (نفعي) في مستوى التضحيات المادية والمعنوية الكثيرة التي تتحملها من أجل تعليم أبنائها. ويجب ألا نخجل من أن نتساءل دائماً كمربين: هل نحن ننتج شيئاً يساوي ما تبذله الأمة من التضحيات على قطاعات التربية والتعليم والتكوين؟

وتأتي هذه الفعالية عن طريق الكفاءة، والكفاءة ليست وحياً يوحى، الكفاءة هي جهد يُبذل من عمل دائم، وهي استمرار في الفعل الإيجابي ...

إن مصطلح تعليمية المادة أو المواد (ديداكتيك) ظهر استعماله جلياً ورسمياً في المدرسة الجزائرية في بداية مارس 1991، عندما نظمت وزارة التربية الجزائرية سلسلة من الملتقيات الوطنية في قصر الأمم التي امتدت من بداية مارس إلى آخر أبريل 1991 لدراسة تعليمية اللغة والأدب...، وتعليمية المواد العلمية وتعليمية العلوم الاجتماعية واللغات الأجنبية. وكانت الإشكالية المطروحة خلال هذه الملتقيات هي: ماذا ندرس؟ لمن ندرس؟ وكيف ندرس؟...، وهذا يعني أن المدرس أصبح مطالباً أكثر من أي وقت مضى بالاطلاع على المعلومات الحديثة، والتزود بالمعارف الدقيقة لآلية التعلم، وأخذها بعين الاعتبار في كل المراحل والخطوات العملية التربوية التعليمية، ابتداءً من وضع النتائج المدرسية، وتحديد المضامين، ومروراً باختيار الطرق والأساليب التربوية، وانتهاء بإعداد الوسائل التعليمية وتقييمها.

وقد ذكر إبراهيم حروش 1991 سبب ظهور التعليمية في الجزائر بقوله "وقد أدى انتشار هذه الأفكار (أفكار مضامين التعليمية) في العشريات الأخيرة، أي من بداية الثمانينيات إلى ظهور التعليمية وبداية تطورها، وكانت نتيجة ذلك أن حظي كل مجال معرفي بدراسات معمقة لتحديد المضامين الضرورية (المناهج) والطرق، والوسائل الملائمة لتقديمها فركز الباحثون اهتمامهم على معرفة الآليات النفسية التي يستخدمها التلميذ أثناء التعلم (سيكولوجية التعلم)، وأولوا أهمية خاصة لطرق وتسليم المعارف الخاصة بكل مجال معرفي (الديداكتيكا الخاصة). (حريزي، 2010، صفحة 56،60)

من خلال ما تم عرضه فإن مصطلح التعليمية (الديداكتيك) الذي يعتبر قديم العهد وتعود جذوره إلى العهد اليوناني، إلا أنه لم يطفو إلى سطح المدرسة الجزائرية إلا مع بداية الجزائر الحديثة (الاستعمار الفرنسي) وإصلاح المنظومة التربوية، من خلال ملتقيات نُظمت من طرف الوزارة الوصية آن ذاك، وجاء نتيجة انتشار أفكار مضامين التعليمية وكذا الحاجة إلى قطع الصلة بالبيداغوجيات التقليدية واعتماد بيداغوجيات حديثة وتبني إصلاحات عميقة في المناهج التربوية من أجل مواكبة ومسايرة التغيرات التي تشهدها الأنظمة التربوية في الدول العربية بشكل خاص وفي العالم بشكل عام.

الديداكتيك Didactique علم التدريس، التعليمية، التعلمية، التدريسية، الديداكتيك

تعددت ترجمات كلمة (Didactique) بمعناها الصلحي الجديد في ثقافتنا العربية، فاستعملت كلمتا "تعليمية المادة" و "تعليمية المادة" مع اختلاف نسبي في المساحة التي تحتلها كل واحدة منهما، حيث يظهر أن كفة "التعليمية" راجحة في تونس...، بينما ترجح كفة "التعليمية" في الجزائر لأنها ترجمت على ذلك النحو منذ أول وهلة، وغلب على المغرب استعمال كلمة "ديداكتيك"، واستحسن آخرون أن يسموه "علم تدريس المواد".

إذا انطلقنا من المعنى اللغوي للديداكتيك، فإن أصله يعود إلى الكلمة اليونانية **DIDAKTIKOS** ، والتي تعني كل ما يهم التدريس والتعليم، ويقابله في الترجمة إلى العربية عدة مفردات؛ كعلم التدريس أو فن التدريس أو منهجية التدريس، والتدريسية أو علم التعليم أو التعليمية، والتربية الخاصة أو الديداكتيك أو الديداكتيكا. أما المعنى الاصطلاحي للديداكتيك فنجد أن هناك من يعتبرها بمثابة علم مساعد للبيداغوجيا، وتسند إليها مهمات تربوية عامة من أجل إنجاز تفاصيلها. وهناك أيضا من يعتبرها بمثابة تأمل وتفكير في طبيعة المادة الدراسية، وغايات تدريسها، بالإضافة إلى صياغة فرضيات خاصة انطلاقا من المعطيات المتجددة والمتنوعة باستمرار، كما أنها دراسة نظرية تطبيقية للفعل البيداغوجي المتعلق بتدريس تلك المادة. ومن خلال ذلك نستنتج أن الديداكتيك تتمحور حول المتعلم والمادة الدراسية والمدرس، وموضوعها هو سيورة التعلم والفعل البيداغوجي، وتستمد مرجعياتها من علم النفس وعلم الاجتماع ونظريات التعلم، أما حقلها النظري فهو البيداغوجيا، وتتمثل مهمتها في التأمل في طبيعة المادة الدراسية وغايات تدريسها، بالإضافة إلى صوغ فرضيات، وحل مشكلات التعلم. (آيت صالح، 2019)

الديداكتيك أو علم التدريس هو الدراسة العلمية لمحتويات وطرق التدريس وتقنياته وكذا لنشاط كل من المدرس والمتعلمين وتفاعلهم قصد بلوغ الأهداف المسطرة مؤسسيا.

- فهو من جهة يهتم بالمادة وما يمكن أن يطرحه تدريسها من صعوبات مرتبطة بمحتواها وبمفاهيمها وبنيتها ومنطقها؛

- ومن جهة ثانية بالمتعلم من خلال بناء وتنظيم وضعيات تعلم تكسبه معارف وقدرات وكفاءات ومواقف وقيم؛

- ومن جهة ثالثة بالمدرس ودوره في تيسير عملية التعلم والتحصيل. (الفاسي، د س، صفحة 2)

يحدد **أستولفي وديفلاي** مجال اهتمام تعليمات المواد "بدراسة التفاعلات التي تربط بين كل من المدرس والمتعلم والمعرفة داخل مجال مفاهيمي معين، وذلك قصد تسهيل عملية تملك المعرفة من قبل المتعلمين" (الجوادي، 2020، صفحة 15). وهو بالتحديد مجال اهتمام التعليمات يعطيها تعريفا دقيقا يتكون من ثلاثة أجزاء:

- فهي "العلم أو المجال التربوي الذي يدرس التفاعلات التي تربط بين كل من المدرس والمتعلم والمعرفة"، وهو معنى قد تشترك فيه التعليمية مع مجالات تربوية أخرى كثيرة.

- فيضيف قيد "داخل مجال مفاهيمي معين" ليضيفي خصوصية على هذه الدراسة، فهي تتعلق بمجال تعليمي، ليعلن بذلك ارتباط التعليمية بالمحتوى والمادة المدرّسة.

- ويضبط الهدف من تعليمات المواد بوضوح "وذلك قصد تسهيل عملية تملك المعرفة من قبل المتعلمين". (الجوادي، 2020، الصفحات 15-16)

وحسب مجموعة من الديداكتيين المعاصرين والباحثين في علوم التربية عموما يمكن التمييز في تعريف الديداكتيك بين:

• **الديداكتيك العامة Didactique générale**: وهي التي تسعى إلى تعميم خلاصة نتائجها على مجموع المواد التعليمية، إذا تهتم بدراسة القوانين العامة للتدريس وما يطرحه هذا الأخير من قضايا على مستوى **النقل الديداكتيكي** للمعرفة العالمة إلى معرفة مدرسية، وكذا على مستوى **المثلث الديداكتيكي** وما تثيره التفاعلات النسقية بين أقطابه الثلاث من تساؤلات، وما يقوم عليه **العقد أو التعاقد الديداكتيكي** من تحديد لمهام وأدوار ووظائف كل المدرس والمتعلم...

• **الديداكتيك الخاصة Didactique spéciale**: وهي التي تهتم بالنشاط التعليمي داخل القسم في ارتباطه بالمواد الدراسية، أي في التفكير في الأهداف التربوية للمادة وبناء استراتيجيات لتدريسها، كأن نقول ديداكتيك الرياضيات أو ديداكتيك الفيزياء أو ديداكتيك التاريخ... (الفاسي، د س، صفحة 2)

• البيداغوجيا **Pédagogie**

من حيث الاشتقاق اللغوي تتكون كلمة "بيداغوجيا" في الأصل اليوناني من شقين هما: **Péda** وتعني الطفل، و **Agogé** وتعني القيادة والسياقة وكذا التوجيه. (الفاسي، د س، صفحة 1)

أما من حيث الاصطلاح فتذهب معظم الدراسات المعاصرة إلى التمييز بشأن مصطلح البيداغوجيا بين استعمالين يتكاملان:

- البيداغوجيا على المستوى التطبيقي هي ذلك النشاط العملي المتمثل في مختلف الممارسات والتفاعلات التي تتم داخل مؤسسة المدرسة بين المدرس والمتعلمين.
- البيداغوجيا في بعدها النظري هي ذلك الحقل المعرفي الذي يهتم بدراسة الظواهر التربوية والمناهج والتقنيات بهدف الرفع من نجاعة وفعالية الفعل البيداغوجي. (الفاسي، د س، صفحة 1)

الفرق بين البيداغوجيا والديداكتيك

إذا كانت البيداغوجيا هي ذلك المجال الذي يهتم بدراسة مختلف التفاعلات التي تتم بين المدرس ومتعلميه، فإن الديداكتيك تهتم على الخصوص بالمادة الدراسية من حيث طبيعتها وبنيتها وكذا بأهدافها وبكيفية بناء وتنظيم وضعيات تعلمها. (الفاسي، د س، صفحة 3)

يقدم كل من كورنو وفيرنيو (**Cornu & Vergnoux**) تعريفا تكامليا للمصطلحين، فالبيداغوجيا هي كل ما يتعلق بفن قيادة الفصل وإعداده (الانضباط والتنظيم ودلالات العمل...)، أما الديداكتيك فهو فن أو طريقة تدريس المفاهيم الخاصة بكل مادة تعليمية مع إدارة الصعوبات الخاصة بمجال معين في تلك المادة. (الجوادي، 2020، صفحة 19)

وإذا أردنا أن نلخص العلاقة بين البيداغوجيا والديداكتيك مسلّمين بعدم القدرة على الفصل التام بينهما، ومستثمرين الرؤية التكاملية لاعتبارها الأكثر شهرة من ناحية، والأقرب إلى روح الوظيفة من ناحية ثانية، وباحثين عن شيء من الإجرائية المساعدة على تبين الحدود بشيء من الوضوح المساعد على استثمارهما كأداتين لتطوير الفعل التعليمي، قلنا إنهما يختلفان من ناحيتين على الأقل:

- **الاولى:** أن التعليمية تهتم بالعملية التعليمية من جهة مادة معرفية معينة، حتى قال "كورنو وفيرنيو" إن التعليمية هي فن إدارة المعرفة داخل العملية التعليمية، بينما تهتم البيداغوجيا بالعملية التعليمية من جهة إدارة الفصل والعلاقات داخله.

- **الثانية:** أن التعليمية مرتبطة بكل مادة تعليمية في حد ذاتها تأخذها من خصوصيتها وتتفاعل مع مفاهيمها ومناهجها وخصائصها المعرفية، ومن هنا جاء الحديث عن تعليميات متعددة بتعدد المواد، بينما ترتبط البيداغوجيا بتلك المفاهيم العابرة للمواد والتخصصات. (الجوادي، 2020، الصفحات 24-25)